التواصل السياسي والجهادي بين التافراوتيين والصحراويين للدفاع عن حوزة الوطن من بداية 1910 م إلى غاية 1934 م

الحسين بوتجكات

طالب باحث في سلك الدكتوراه

جامعة الحسن الدار البيضاء ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية

المغرب

الملخص :

يأتي اهتمامنا بموضوع هذه الدراسة ، لتسليط الضوء على بعض من أوجه مساهمة منطقة تافروات ونواحيها في مسلسل الكفاح الوطني ضد المستعمر الفرنسي منذ محاولاته الأولى لدخول أراضي المغرب ، انطلاقا من العلاقات المتينة التي اتخذت أبعادا سياسية وجهادية وجمعتها مع مختلف المناطق والقبائل لمواجهة هذا الطارئ الجديد (الاحتلال) ، ومنها على وجه الخصوص ، علاقاتها مع أسرة ماء العينين الصحراوية ، التي استقرت منذ بداية القرن العشرين (1910 م) بمنطقة تيزنيت القريبة جغرافيا من تافراوت ، إذ كان لهذا التقارب الثنائي دور هام في تكريس مجموعة من القيم النبيلة (كالتآزر ، التآخي ، اللحمة ، التضامن...) ظلت السمة البارزة التي جمعت بينهما إلى جانب قبائل أخرى تشاركها هاجس التصدي للجيش الفرنسي ، فاستطاعت بذلك خلق اتحاد قوي ونوعي صمدت ووقفت من خلاله ندا لند أمام دخول هذا المستعمر إلى العديد من مناطق الجنوب المغربي لمدة ناهزت العقدين ، ومعارك آيت عبد الله سنة 1934 م كانت آخر معاقل هذا الصمود في وجهه .

الكلمات المفتاح: تافراوت، أسرة ماء العينين ، التواصل ، المقاومة ، الجهاد ، الاستعمار .

تقديـم عـــام :

لقد مر المغرب من أزمات خانقة ونكبات متتالية ،تسارعت خطاها منذ أواخر القرن 19 م وبداية القرن 20 م ، بتوالي ضغوطات العديد من الدول الأوربية عليه ومن جميع المستويات والأصعدة ، عجلت بداية من 30 مارس 1912 م بتوقيعه مكرها وثيقة الحماية ، التي سرعان ما تحولت فيما بعد إلى احتلال واستغلال مباشر لكافة خيراته وموارده الطبيعية ...وأحدثت تغييرات جذرية في البنيات السوسيو اقتصادية للمغاربة ، الشيء الذي فرض عليهم إزاء هذه الوضعية الجديدة التي لم يعهدوها من قبل ، الوقوف وقفة رجل واحد ،من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه ، هذا الأخير، الذي هبت كل قبائله لتلبية واجبها المقدس تجاه أرضها ووطنها وصونا لكرامتها وعزتها ، مبرهنة بذلك عن رفضها المطلق – كمثيلاتها من المناطق المغربية الأخرى – لهذا الطارئ الجديد (الاحتلال)، عبر مقاومتها التلقائية له ، بقيادة من الرعيل الاول للمجاهدين المغاربة الذين تصدروا المشهد الجهادي ، مستثمرين اللحمة التي جمعت كل القبائل فيما بينها لتسطير أولى الأحداث البطولية في مقاومة الغزو العسكري الفرنسي للبلاد ، التي خلدت بماء من ذهب وتركت بصماتها في صفحات تاريخ المغرب خلال القرن العشرين .

ومن بين أبرز هذه الروابط المتينة التي جمعت بين المجالين الجبلي والصحراوي ، وساهمت بشكل فعال في النضال ضد المستعمر الأجنبي ، نشير للعلاقات بين التافراويين (أهل منطقة تافراوت ونواحيها) بإخوانهم الصحراويين (أسرة ماء العينين) ، بحيث كانت بدياتها مع حلول سنة 1910 م ، وهو التاريخ الذي شهدت فيه مدينة تيزنيت قدوم الأسرة المعينية (ماء العينين) للاستقرار بها وتحملها لمسؤولية الجهاد ضد المستعمر الفرنسي ، بعد أن توافقت عليهم وبايعتهم معظم القبائل الجزولية والصحراوية (جنوب المغرب) على حد سواء للدفاع عن الوطن ، واستمرت هذه الروابط إلى غاية 1934 م ، وهي السنة التي تم فيها إخضاع كافة مناطق جبال جزولة ، بما فيها تافراوت ونواحيها ، من خلال المعارك التي خاضتها واستماتت في الدفاع عن أرضها لمدة طويلة إلى جانب إخوانهم من أسرة ماء العينين الصحراوية ، وأشهرها تلك التي دارت بمنطقة آيت عبد الله .

وسنحاول التطرق لهذا الموضوع، انطلاقا من الإجابة على السؤالين التاليين:

- ما مظاهر التواصل السياسي والجهادي المشترك، الذي جمع التافراويين (أهل تافراوت) بالصحراويين؟
- كيف استطاع هذا التواصل الحد من محاولات الاستعمار الفرنسي للدخول لمنطقة تافراوت ونواحيها؟

1 / لمحة تاريخية عن العلاقات التواصلية[1] بين سوس والصحراء

إن العلاقات المشتركة التي جمعت بين مناطق سوس عموما ومنها تافراوت[2] ونواحيها خصوصا، بالمناطق الصحراوية المغربية ، لم تكن وليدة قدوم الاستعمار الفرنسي إلى المغرب فحسب ، خاصة إذا علمنا أن عناصر التمازج والالتقاء التي جمعت بينهما ، ترجع إرهاصاتها الأولى إلى فترات موغلة في القدم وشملت مستويات عدة : (ثقافيا ، فكريا ، اجتماعيا واقتصاديا...) ، فلقد عملت القبائل المستقرة في عمق الصحراء المغربية على ربط علاقات وطيدة مع باقي المدن المغربية كفاس ومراكش وسوس... وساهمت في ذلك مجموعة من العوامل أبرزها :

_ العامل الديني : انطلاقا من انتشار حركات دينية عديدة وجهت مسار تاريخ المغرب منذ القرن 5 هـ / 11 م في سوس ، وتزعمها فقهاء وعلماء كانوا في واجهة الأحداث ، أبرزهم وكاك بن زلو اللمطي[3]الذي أسس أول الرباطات (الزاوية) بالمغرب (رباط أكلو) ، أما في المناطق الصحراوية (المناطق الصنهاجية) ،فقد عرفت بدورها بزوغ حركة المرابطين (الدولة المرابطية) بين القرنين 6 هـ /11 م و 7 هـ /12 م التي امتدت مجالات حكمها من أعماق الصحراء إلى غاية الأندلس بإسبانيا .

_ التبادل التجاري: وذلك عبر العديد من القوافل التجارية التي كان منطلقها من ميناء الصويرة، أو من المراكز التجارية القديمة كسجلماسة من الشرق ، مرورا بسوس وزاوية إليغ و تافراوت ، التي كانت بمقربة من مناجم الفضة والنحاس بتازلاغت (آيت عبد الله)[4] ثم الصحراء ، متوجهة صوب إفريقيا الجنوبية كالسينغال ومالي وتمبوكتو[5].

_العامل الثقافي : المتجلي في الروابط التي جمعت بين المجالين (الصحراوي والجبلي) ، من خلال التوارد اللسني بين الثقافة السوسية و الحسانية من جهة ، فضلا عن السجالات الفقهية والحوارات العلمية المشهورة التي ميزت العلماء السوسيين والصحراويين من جهة ثانية ، وأبرز مثال على ذلك ، واقعة الشيخ محمد ين يحيا الولاتي لما نزل بإلغ وبين الشيخ محمد بن العربي الأدوزي ...[6] ، كما توطدت أكثر هذه الروابط مع انتقال أسرة ماء العينين إلى تيزنيت ، فكان ذلك باكورة تواصل جديد وتشكيل إرث مشترك بين الصحراء وسوس لازالت مستمرة إلى وقتنا الحالي[7].

2 / أوجه التواصل السياسي والجهادي[8] بين التفراويين والصحراويين:

أ / بالنسبة للتواصل السياسي فيتجلى من خلال:

– المشيخة : فلقد حظيت أسرة ماء العينين بمكانة هامة لدى مختلف القبائل السوسية عموما وتافراوت خصوصا ، انبثقت من مكانتها العلمية التي عرفت بها منذ بداية تأسيس الشيخ ماء العينين لزاويته بالسمارة مع نهاية القرن التاسع عشر ، نظرا لتداول اسمه بين الناس كعالم وفقيه ومحدث ومتصوف وقائد في ميدان الحرب[9] ، بحيث انتقلت زاويته في ظرف وجيز ، إلى مركز حضاري وملتقى و محج للعديد من العلماء والأدباء والطلبة المريدين الذين استقطبهم الشيخ للدراسة فيها ، ساهموا بشكل كبير في ازدهار حركة التأليف في تلك المناطق ، فأضحت هذه المكانة العلمية الرفيعة للشيخ ماء العينين ، سببا في تبوأ أحمد الهيبة لنفس مكانة والده المرموقة بعد وفاته في سنة 1910 م ، وحمله لواء أسرة ماء العينين التي جمعت بين الرصيد العلمي الشامل والثقافة الموسوعية الملمة بكل القضايا المستجدة ، والجهاد العسكري النابع من إيمان حقيقي بضرورة مواجهة المحتل الأجنبي ، مستثمرين مباركة الملوك العلويين لجهودهم في تدبير شؤون المناطق الصحراوية ، وذلك بعد أن دعا السلطان المولى الحفيظ الشيخ ماء العينين وأسرته للإقامة بمدينة تيزنيت ،حيث بقي الهيبة وأبوه منذ تلك الحقبة وفيين في خدمة السلطان[10].

ب / بالنسبة للتواصل الجهادي :

- **اختيار أحمد الهيبة زعيما للجهاد:**

لقد شعرت قبائل الجنوب المغربي بالخطر الذي بات يهدد استقرارها وأمنها ، منذ دخول الفرنسيين للحدود المغربية الشمالية مباشرة بعد توقيع معاهدة الحماية ،الشيء الذي مهد الظروف لبروز زعامات محلية مجاهدة ومقاومة ،ومن أبرزها شخصية أحمد الهيبة ابن الشيخ ماء العينين[11]، حيث اجتمع أهل سوس بتيزنيت (العلماء والفقهاء والأعيان وشيوخ القبائل) بما فيهم المنحدرين من تافراوت ،لتعيين الشيخ أميرا للجهاد بداية من شهر ماي 1912 م[12] ، حيث التفت حول حركته الجهادية معظم قبائل سوس والصحراء وتوافدت عليه من كل حدب وصوب آتية من : آيت باعمران ، الأخصاص، إفران، مجاط ، ولتيتة ، جبال جزولة ، أزغار... وغيرها كثير مدعومة بمختلف الزوايا[13]، وقد استطاع الشيخ قيادة وتزعم هذه القبائل وتوحيد صفوفها للجهاد ضد الجيش الفرنسي – في وقت كانت الصراعات الثنائية والقبلية وسيادة الاحلاف واللفوف أبرز ملامح القبيلة بسوس عامة وتافراوت خاصة التي عانت بدورها من نتائج هذه الظاهرة (حلفي تاحكات وتاكيزولت)[14] – فتراصوا جميعا وأعلنوا النفير العام للمشاركة في الحملة الشهيرة نحو مراكش (سيدي بوعثمان في غشت 1912 م) ، ومنها قبيلة آيت عبد الله التي عين عليها الشيخ الهيبة القائد أحمد بن الطالب[15]على رأس وفد قبيلته وهو شقيق عبد الله زاكور (قائد معركة آيت عبد الله) ، إلى جانب فقهاء وعلماء وطلبة علم ،

أبرزهم الاديب والعالم والشاعر الشيخ محمد الحبيب بن الحاج ابراهيم البوشواري[16]، الذي انضم بدوره لحملة أحمد الهيبة في تيزنيت ومراكش ، حيث كان صاحب سره وموثقه وكاتبه الخاص ومن أخلص مستشاريه ، ودائم التردد علي الشيخ الهيبة وعلى خلفه مربيه ربه في مقر اقامتهم بكردوس[17].

فلقد قدمت كل القبائل المشاركة في حملة الهيبة الجهادية كافة أشكال المساندة والدعم بما فيهم التافراويون ،الذين قاموا بتموينها وإرسال المعونة إليها مع تزويدها بالفرسان والمحاصيل الزراعية...كما هو واضح في العديد من الرسائل المتتالية التي كان يبعثها الشيخ أحمد الهيبة إلى أهل تافراوت وأملن تحديدا[18]، ومنها هاتين الرسالتين ، الأولى مؤرخة بتاريخ 16 شوال 1333هـ.. / 1915 م ويقول فيها :

" الحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبي بعده ، خدامنا المرضيين الناصحين ، قبيلة أهل أملن فقهاء ورؤساء المجاهدين ، أرشدكم الله وعليكم سلام عام تام ، فموجبه إعلامكم أن المجاهدين حازوا فوق المرام من مغارم المارقين ، مكاحل وخيل وبهائم وزرع وأثاث وغير ذلك ، وقد ربحت المحال منهم ربحا كثيرا كما سمعتم ، والآن وجهوا لنا حركتكم لتأتينا ، أو تنزل على رسموكة السهل مع رسموكة الجبل بلا تأخير ، وأقدموا علينا بأعشاركم الزراعية ، بارك الله فيكم وعليكم ، فلا نعدكم إلا من أقرب القبائل وأكثرها نفعا لدار المخزن و أنكاها للأعداء ، وجزاكم الله عنا وعن الإسلام بخيري الدنيا والآخرة بالتمام ، وعلى المحبة والسلام " [19].

أما الثانية فكانت مؤرخة في 2 ذي الحجة عام 1333 هـ / 1915 م وفيها:

" الحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبي بعده ، خدامنا المرضيين المحبين ، إخواننا أهل أملن آمنكم الله وأصلح الله أمركم ، وسلام عليكم ورحمة الله ، أما بعد فلا بأس والحمد لله ، وقد اجتمعت هنا قبائل ولتاتة ومجاطة وبعمرانة وغيرهم ، واتفقوا على نصر الدين والوقوف في جميع مصالح المسلمين والجهاد في سبيل الله وتعمير بيت مال المسلمين بالأعشار والزكوات ، و تواثقوا على ذلك وعلى الحركة الجهادية بعد فوات هذه العيد المبارك بحول الله وأعلمناكم لتفرحوا بنصر الله واجتماع كلمة المسلمين ، هذا وإنا قد سمعت أنكم قادمون علينا هنا أعيانكم ، ففرحنا بقدومكم ، ومرحبا بكم وسهلا بكم ، وعلى الأخوة والمحبة والسلام " [20].

فهاتين الرسالتين أعلاه توضحان الأهمية التي مثلتها المنطقة في دعمها لجهود الشيخ أحمد الهيبة ومساندته في الدفاع عن البلاد ضد قوات المحتل الفرنسي، وذلك من خلال قوله :" فلا نعدكم إلا من أقرب القبائل وأكثرها نفعا لدار المخزن و أنكاها للأعداء... ".

ومن بين أوجه هذا التواصل كذلكما نجده في قصيدة شعرية وهي من ثلاثين بيتا، هنأ من خلالها الأديب محمد التونلي التملي[21] الشيخ أحمد الهيبة بتعيينه أميرا للجهاد قائلا :

وأرح قلوب المؤمنين فما عسى ... يجدي سواه حزم وعزم أصوب.

بكتائب كالسحب لمـا اقلعت ... كأسود غيل الفقر مهما تطلب

من كل قرم للحروب يرود مـا ... يزرى لدى الهيجا ببرق خلب

تذرا العـدا تحوم حوائم الـ ... العقبان تفرى هامهم في السبسب

يغدو ويصبح للوغى غضبان لا ... يعنى بغير مـدرع ومذرب [22].

ثم لما قام الشيخ أحمد الهيبة بزيارة لتافراوت وأملن بداية من سنة 1916 م، نظمت في حقه قصيدة أخرى من تأليف أحد فقهاء المنطقة ، ويدعى محمد بن عبد العزيز الكردوسي[23] ، قال فيها :

أناخت مهارى المبتغى والمؤمل بأجبال كست وهي أجبال أمل

فقف وتأمل في الصنائع واعتبر فما كل صنع عبرة المتأمل

أتيحت بها أسرار قرب ونفحة ويقضي بها المأمول حاج المأمل

بلاد بها تكفي المهم تفضـلا ويحصل ما املت ما شئت امل.

حمدناك مولانا رجوناك كن لنا فأنت الذي يرجوك كل مؤمل[24].

وكان الشيخ أحمد الهيبة إلى جانب أخيه مربيه ربه، دائم التردد على تافراوت لغاية أيامه الأخيرة (ت 1918 م) ، حيث كان حريصا على زيارتها ، خصوصا قبيلة أملن و قرية أكرض أوضاض ، التي ما فتئت تستقبل المجاهدين وتؤويهم إبان الحملات التي تستهدف مقر قيادة المجاهدين بكردوس .

- **الشيخ مربيه ربه وحمله للواء قيادة العمليات الجهادية ضد الفرنسيين** [25] :

يعتبر دور الشيخ مربيه ربه في قيادة العمليات الجهادية ضد القوات الاستعمارية الفرنسية والاسبانية ريباديا، خصوصا بعد تعيينه زعيما للمجاهدين خلفا لأخيه، وحرصه على إذكاء حماسة القبائل وتوجيهها وتنشيط الحمية الجهادية لديها ، فسارعت بدورها للالتفاف حوله ودعمه ومساندته ، وذلك لأن شروط الزعامة في تلك المرحلة الصعبة كانت متوافرة في شخصه وأبرزها:

- انتماؤه الأسري، وطبيعة شخصيته المتميزة بالقدرة على التأثير في القبائل في توحيدها وتنظيمها.
- حضوره الفعلي في مسرح الأحداث منذ عهد والده ثم أخيه جعلته شخصية، تتسم بالذكاء والحنكة السياسية وقيادة الجيوش المجاهدة.

- **تجربته العسكرية الطويلة في مواجهته للفرنسيين ومعرفته لدسائسهم وخططهم ...**

كان أول ما قام به الشيخ مربيه ربه مباشرة بعد تعيينه أميرا للجهاد ،هو حرصه على تكريس اللحمة والترابط بين مختلف القبائل التي انضوت تحت قيادته لمواجهة المستعمر الفرنسي[26] ، إذ يعد ذلك أمرا مهما لاستمرار العمل الجهادي في دعم المجاهدين وتموين حركتهم ولتحفيزهم كذلك على الصمود في الجبهات الأمامية ، حيث عمل الشيخ بداية من سنة 1922م على القيام بجولات متكررة في جبال الأطلس الصغير رفقة بعض القواد المحليين أمثال : القائد المدني الأخصاصي ، القائد سعيد المجاطي ، الفقيه علي بن عبد الله الإلغي وغيرهم...توجت باستنهاض همم القبائل وحثها على مقاومة الاستعمار[27]، حيث استجابت معظم القبائل لندائه ومنها قبائل تافراوت التي دأبت على إرسال دعم عيني ونقدي إلى حيث معقل المقاومة بجبل كردوس " *...إذ أن كل أسرة كانت تؤدي ريالا حسنيا في السنة ، وبعد هذا الإجراء مغرما واجبا ، ولرؤساء القبائل في ذلك حظ ، فيلزمون الناس حتى يؤدوا ذلك مع الضيافات والهدايا ، فيجمع آلافا في كل دورة* " [28] ، وتمدنا الرسائل التي كان يبعثها مربيه ربه للأعيان في كل من تافراوت ونواحيها ،بأمثلة عن طبيعة ذلك التموين التي كانت تحظى به حركته ، ومنها رسالة بعث بها لأهل أملن مؤرخة بتاريخ 20 ذي القعدة 1342 هـ /1924 م يقول فيها :

" *الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده ، المرضيين قبيلة أهل أملن ، رعاكم الله وعليكم سلام عام تام ورحمة الله تعالى وبركاته ، فموجبه إليكم إعلامكم أننا أمرناكم بالحركة صحبة خليفتنا الشيخ الجيه المختار ، وها هي الحركات قادمة بحول الله وقوته ، ولا تتأخروا وكونوا من السابقين لنصرة الدين كما هي عادتكم بالتمام والسلام* " [29].

ومن جانب آخر ، فقد كان الشيخ دائم الترحاب بالعلماء والفقهاء في مجالسه بكردوس ، على اعتبارها ملتقى العلماء والشعراء والأدباء ، وأغلبهم ينحدرون من مناطق تافراوت ومحيطها ، التي عرفت انتشارا واسعا للعديد من المدارس العلمية (مدرسة تمكدشت العتيقة ، الجشتيمية ، الكرسيفية و الإلغية...)[30]، كما حرص إلى جانب هذه المراسلات والاستقبالات على التنقل الدائم بدوره سيرا على درب أخيه الهيبة إلى مناطق أملن ، آيت صواب ... وذلك في زيارات متكررة لأعيانها وقيادها وفقهائها – بالرغم من المحاولات الدائمة للمستعمر الفرنسي للنيل من تلك التحركات ، عبر سعيها الحثيث لتقديم الاغراءات التي تروم من وراءها استمالة أعيان ووجهاء وفقهاء القبائل للتنازل عن مبدأ الجهاد ضدهم – حيث اتخذ الشيخ مربيه ربه قرية أكرض أوضاض بتافراوت مركزا لعملياته الجهادية وخططه العسكرية ، بل وتحصن فيها إبان حملة المطاردة التي استهدفته من طرف القوات الاستعمارية [31] التي قامت بالإغارة على قرية إيبغد –لا تبعد كثيرا عن أكرض أوضاض– بالقنابل المحرقة التي تزن 80 كيلوغراما بعد معرفتها بخبر احتمائه فيها ، بالرغم من كونها تعد أسلحة فتاكة ومحظورة في تلك الفترة ، كما وقد جمعته علاقة مصاهرة بإحدى بنات الحاج عبد الله ابراهيم الراجي التافراوتي الأكرض أوضاضي ، وهي العالمة عائشة الراجي ، أخت أحمد الراجي الذي استشهد في معارك آيت عبد الله[32] .

3 – معارك آيت عبد الله آخر معاقل صمود المجاهدين بسوس.

تعتبر معارك آيت عبد الله ملحمة من الملاحم البطولية التي أبانت فيها مختلف القبائل السوسية ، بما فيها منطقة تافراوت ، عن بسالة كبرى في مقاومتها الشرسة للتغلغل الفرنسي في مجال الأطلس الصغير الغربي بحكم طبيعتها الممانعة[33]، فاستطاعت من خلالها الصمود منذ سنة 1912م الى غاية 1934م بقيادة المجاهد عبد الله زاكور[34] إذ وصفت تلك المعارك بكونها من أعنف المواجهات التي استعملت فيها فرنسا مختلف الأسلحة الفتاكة في ذلك الوقت ، بعد أن عمدت إلى القصف المكثف والمستمر لأيام متتالية بواسطة أسراب من الطائرات القادمة من قواعد بنسركاو –أكادير– ببراميل من القنابل العنقودية [35]، دفعت الأهالي للجوء الى قمم الجبال والتحصن بالمغارات والأنفاق ، لاسيما وأن تلك الطائرات لم تترك مكانا إلا واستهدفته (المساجد ، الاضرحة ، الزوايا ، منازل السكان ، المواشي ...) ، الشيء الذي خلف مئات من القتلى والمصابين في صفوف النساء والأطفال والشيوخ ، فضلا عن نفوق مئات رؤوس الماشية ، وما تزال آثار هذا القصف ماثلة للعيان وشاهدة على ضراوة تلك الهجمات المتتالية[36].

وقد عمد الجيش الفرنسي لهذا الحل النهائي ، بعد استنفاده لكافة سلسلة محاولاته التفاوضية مع زعيم قبيلة أيت عبد الله – الشيخ عبد الله زاكور – المشهور محليا ب كوعبل ، سواء كانت هذه المحاولات التفاوضية :

- ترغيبا : عبر إيفاد أعيان للتفاوض معه لأجل السماح للجيش الفرنسي بالتخطيط لشق طريق ، تربط بين كل من تارودانت بآيت عبد الله عبر توفلعزت وإداوسكا ، وطريق آيت باها بتافراوت ، ومن ثم تحيط بالمنطقة من جميع الجوانب ، فكان رد الشيخ بالنفي قائلا بلغته الأمازيغية النافرة : أغاراس ، أغاراس ، أيكان أكال [37] ، أي أن الهدف من شق الطريق هو الاستحواذ على كافة الأراضي لاغير .

- ترهيبا : إرسال رسائل تهديد له في حالة عدم استسلامه لهم ، بعد فشل كل الأساليب السالفة ، حيث اعتمدت القوات الفرنسية أسلوب المناورة بادعائها أن هدفها يتجلى في فتح الطريق وفك العزلة عن المنطقة ، لكن هذه الحيل لم تكن لتنطلي على المقاوم زاكور ،الذي أقسم بإيمانه أن لا يدخر أي جهد في سبيل محاربة فرنسا والدفاع عن بلاده ، إذ نصحها بالرجوع من حيث أتت مؤكدا قسمه بعدم السماح لفرنسا في شبر واحد من تربة بلاده [38].

- مساومة : الاغراءات الكبيرة التي تساومه بها فرنسا من أجل الاستسلام وتسليم آيت عبد الله لها [39].

وأمام تشبث الشيخ زاكور بموقفه ، الذي ساانده فيه العديد من المتطوعين للجهاد من قبائل الجوار (كأملن ، أمانوز، تنالت ،تاسريرت ، أو غيرها كالأخصاص ، إفران و إداوسملال ...) ممن رافقوا القائد المدني الأخصاصي[40] لتقديم العون والدعم للمقاومة الباسلة التي أبدتها آيت عبد الله ضد القوات الفرنسية[41] ،هذا القائد الذي لعب دورا محوريا إلى جانب القائد الناجم الأخصاصي ، في وضعه لاستراتيجيات مواجهة الفرنسيين خلال معارك آيت عبد الله ،بحكم اكتسابهما لتجربة طويلة في ميادين القتال والحرب منذ انضمامهما لحركة أحمد الهيبة في مراكش، أو في غيرها من المعارك التي شاركا فيها ضد "حيدة بن مايس" في معركة إكالفن 1917[42]، وضد قوات الجنرال الفرنسي دولاموط في نفس السنة [43]، فضلا عن ما كان للقائد المدني من علاقة متينة مع أسرة زاكور وخاصة القائد أحمد بن الطالب شقيق كوعبل ....

وإزاء ذلك التعنت الذي أبداه الشيخ زاكور في قبوله لأي محاولة تفاوضية معه ، ومع المدة الزمنية الطويلة التي استغرقتها فرنسا لإخضاعها لهذه المناطق الخارجة عن سيطرتها ، قررت الإقامة العامة الفرنسية حسم المعركة نهائيا ، بحيث قامت باستدعاء آلاف الجيوش القادمة من السنغال وتندوف بالجزائر و أكادير والصحراء لتطويق منطقة الاطلس الصغير الاوسط ، فزودتهم بأسلحة ثقيلة وعصرية ، في مقابل ، جيش من المجاهدين المتطوعين الذين لم تكن لديهم إلا أسلحة تقليدية (بوشفر و صاصبو اللتان يتم ملؤهما بخليط من البارود وقطع حديدية حادة كالمسمار وغيرها)[44] ، إلى جانب معنوياتهم المرتفعة التي استمدوها من إيمانهم بضرورة الدفاع عن أرضهم ، لكنهم لم يستطيعوا مجاراة تلك الأعداد الكبيرة المتفوقة عليهم ، لذلك قرر الشيخ عبد الله زاكور ، إنهاء الحرب مع الفرنسيين حقنا لدماء المزيد من الضحايا الأبرياء ، وأعلن في الأخير استسلامه لآلة الحرب الشرسة الغير متكافئة بين الجانبين التي لا تفرق بين المدنيين والمجاهدين ، وذلك في أواخر شهر فبراير من عام 1934 م حيث سيُحكم الاستعمار الفرنسي قبضته على قرية أساكا المركزية –آيت عبد الله– وشرعوا في إلقاء القبض على المجاهدين والزج بهم في السجون[45] وإلقاء منشورات بواسطة الطائرات تطلب فيها الإذعان والطاعة...[46]علاوة على نفيهم لزعيم المقاومة عبد الله زاكور إلى قبيلة "تالمست" بأيت توجات –إقليم الصويرة– وفيما بعد تم إيداعه في سجن تارودانت ومورست في حقه شتى ألوان التعذيب لمدة سنتين ، وأطلق سراحه بعد أن تدهورت حالته الصحية ليعيش في قريته زغنغين بآيت عبد الله حتى بداية 1972م تاريخ توفي رحمه الله[47].

ليسدل الستار بذلك عن إحدى المقاومات التي امتدت زهاء 22 سنة ، وقفت ندا لند ، أمام أعتى القوى الاستعمارية في أوربا خلال القرن العشرين التي تفوقت بفضل إمكاناتها الكبيرة عددا وعتادا ، في مقابل قوة إيمان رجال أبطال أشاوس كعادة أهل جزولة إلى جانب جيرانهم وأهلهم الصحراويين (أسرة ماء العينين) وبقية القبائل الأخرى الداعمة لعملياتها الجهادية ، وذلك في جو طبعه التواصل والتنسيق الدائم وتوحيد الجهود بينها للذود عن حمى الوطن ، إذ كان ذلك عاملا مهما ساهم بشكل كبير في تأخير وصول القوات الاستعمارية إلى آخر معاقل الصمود بتافراوت ونواحيها .

ختاما

من خلال هذا الاستعراض الوجيز لبعض من أوجه التواصل والتلاحم الذي جمع كلا من التافراوتيين والصحراويين كإحدى الوسائل الناجعة الي ساهمت بشكل كبير في تأخير دخول المستعمر الفرنسي بجيشه العتيد إلى آخر مناطق الصمود بآيت عبد الله ، أمكننا استنتاج عدد من الملاحظات من بينها :

- إن اللحمة والتضامن كانا بمثابة الهاجس الأول والأوحد الذي جمع المجاهدين بمنطقة تافراوت ونواحيها مع إخوانهم الصحراويين من أسرة ماء العينين ، بل كانت العامل الحاسم في مواجهة المستعمر الفرنسي في جبال جزولة ، إذ يعتبر ذلك درسا من دروس الوحدة الوطنية ، لأن ما يجمع المغاربة أقوى بكثير مما يفرقهم .

- بالرغم من محاولات المستعمر الفرنسي الدائمة لاستمالة القبائل وقيادها وأعيانها إلى صفهم ، عبر إغراءات مادية ومعنوية عديدة لهم رغبة في طعن المقاومة من الخلف ، إلا أنها لم تؤتي أكلها في الأخير .

- (التضامن ، التكتل ، التآزر ، الوفاء بالعهد ، التضحية وتوحيد الجهود والرؤى ، إلى جانب التنسيق وتغليب لغة الحوار بدل لغة الخلاف والجدال وعدم الاتفاق ...) كلها قيم تشبعت بها القبائل الجزولية كسلاح في مواجهة مكائد ودسائس ومساومات قادة الجيش الفرنسي مدعومين بالعديد من المتعاونين معهم ، ودليلنا على ذلك ، ما صادق عليه المجتمعون في مركز قيادة عمليات الجهاد بكردوس بزعامة الشيخ مربيه ربه ، كانت خلاصته التعهد بالوفاء وعلى كلمة واحدة وهي : إما النصر أو الاستشهاد .

ملحق الصـور :

الصورة مأخوذة من كتاب : جذور الديمقراطية في المغرب ، ديمقراطية قبيلة آيت عبد الله نموذجا 1914-1934 م للأستاذ عمر أمرير .

مقبرة جماعية للشهداء الذين سقطوا إثر قصف القوات الفرنسية للسوق الأسبوعي بوسط آيت عبد الله ، التقطت الصورة يوم 18 ماي 2022 من خلال زيارة ميدانية للمنطقة .

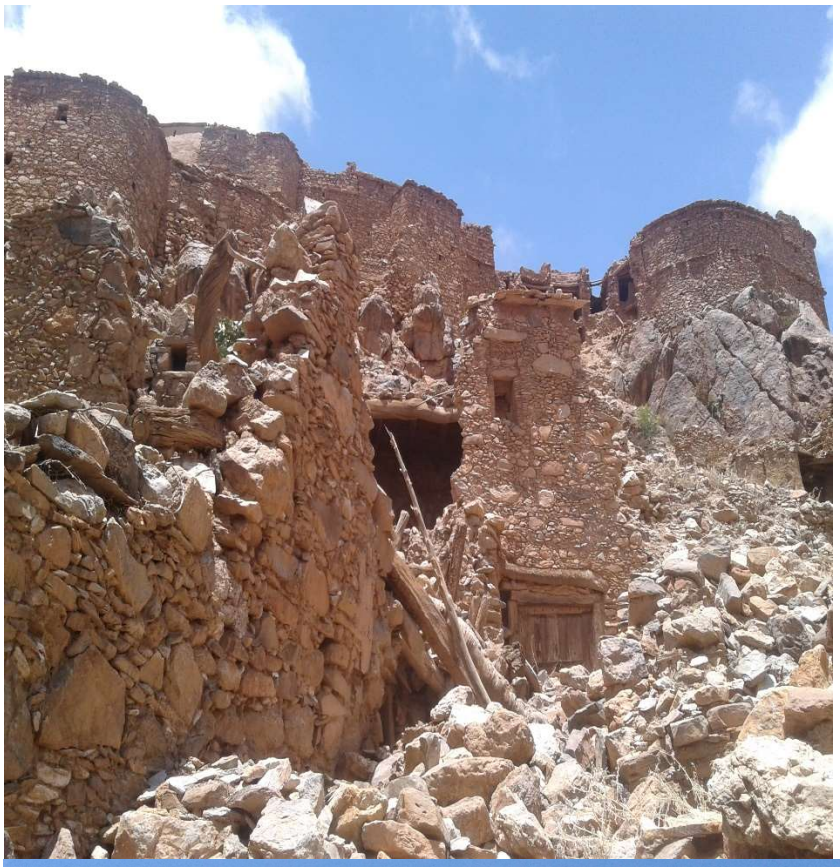

هذا قبر المجاهد الحاج عبد الله
بن سعيد بن الحاج محمد ذراكون
المولود سنة 1895م والمتوفى سنة
1972م. لقد وقف في وجه الاستعمار
الفرنسي بالاطلس الصغير زهاء 21 سنة
حتى اضطر المستعمر استعمال الطائرات
للتغلب عليه في معركته البطولية الواقعة
بين ادوسكا وايت عبد الله حيث القي
القبض عليه سنة 1934م و وضع تحت الحراسة
الاجبارية بتارودانت. رحمه الله رحمة
واسعة وإنا لله وإنا إليه راجعون

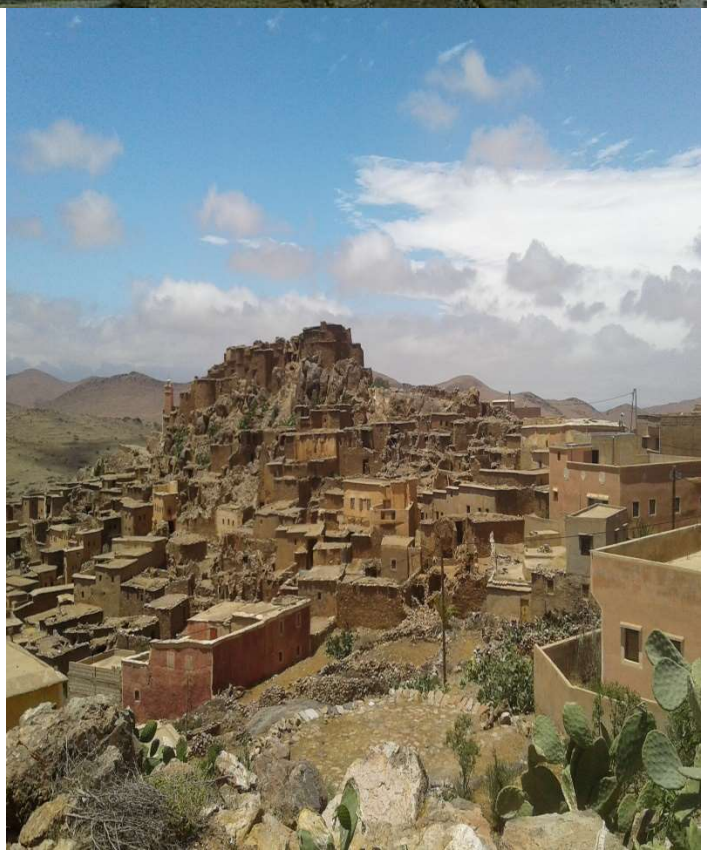

الصور توضح : آثار القصف الذي تعرضت له قرية زغنغين + قبر المجاهد عبد الله زاكور .

التقطت الصور يوم 18 ماي 2022 من خلال زيارة ميدانية للمنطقة

الصور مأخوذة من الموقع الإلكتروني الشيخ ماء العينين : www.cheikh-maelainin.com ،تاريخ زيارة الموقع يوم 22 ماي 2022

الهوامش:

[1] المقصود به هو ذلك التفاعل والتلاقي الذي يجمع بين طرفين أو أكثر ، قصد خلق اتحاد وتكتل ممتد في الزمان والمكان ...

[2] كلمة أمازيغية لها علاقة بالماء والغيث ،إذ تعني الميزاب الذي يصرف مياه المطر خارج سطوح المنازل ، وهي قبيلة تتواجد ضمن مرتفعات الاطلس الصغير الاوسط ، تحدها قبائل أملن في الشمال والشمال الشرقي ، تاسريرت شرقا ، تارسواط و تمالة غربا ، وهناك مواقع عديدة في الجنوب المغربي تسمى تافراوت لشبهها بقناة الميزاب المستطيلة ، للمزيد حول هذه التسمية أنظر : الحسين جهادي ، مادة تافراوت ، **معلمة المغرب** ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا ،الجزء 1 ، سنة 1989 ،ص 2075-2076.

[3] من أهم رجال التصوف بسوس في النصف الأول من القرن 5 هـ /11 م ، وكاك ، يطلق كوصف للعالم الملم بالقرآن الكريم وأمور الدين ، وقد سماه ابن خلدون محمد بن وكاك بن زلو وإليه ينسب العديد من الأسر بسوس كلها ، كما ذكر المختار السوسي ، للاستزادة اكثر حول شخصية هذا العالم ، أنظر مجموعة مؤلفين ، مادة ، وكاك بن زلو اللمطي ، **معلمة المغرب** ، م ، س ، ص 7611/7609.

[4] عمر أمرير ، **جذور الديمقراطية في المغرب ،ديمقراطية قبيلة آيت عبد الله نموذجا 1914-1934 م** ، منشورات دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ،الرباط ، الطبعة الأولى، سنة 2013 ، ص 38-40.

[5] دانييل شروتر ، **تجار الصويرة ، المجتمع الحضري والامبريالية في جنوب غرب المغرب 1844 – 1886** ، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ، مطبعة النجاح الجديدة بالبيضاء ، الطبعة الأولى، سنة 1997 ، ص 180.

[6] أنظر نص الحوار في **رحلة محمد بن يحيى الولاتي الحجازية** ، للمؤلف الحافظ محمد يحي بن محمد المختار الولاتي ص 104 ، تخريج وتعليق محمد حجي ، منشورات دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ، سنة 1990 ، 104 ، إلى جانب مضمونها كذلك الذي أورده محمد المختار السوسي في كتابه **المعسول** ،منشورات مطبعة النجاح بالدار البيضاء ، الجزء 8 ، الطبعة الأولى ، سنة 1961م ، ص 181-182 .

[7] يقام موسم ديني ينظمه حفدة الشيخ أحمد الهيبة من أسرة ماء العينين بمنطقة كردوس (إقليم تيزنيت) مكان دفن الشيخ أحمد الهيبة . قصد إحياء ذكراه السنوية .

[8] المقصود به ، التفاعل والتآخي الذي جمع بين الطرفين ،الذي استطاعا من خلاله مواجهة المستعمر الأجنبي الطامح في إخضاع كافة الأراضي المغربية .

[9] محمد عيناق ، **سبل الاقتناع بوجوب الوحدة والإجماع ، قراءة في كتاب الشيخ ماء العينين ، دليل الرفاق على شمس الاتفاق** ، ندوة سوس والصحراء المغربية ، تواصل ثقافي وحضاري ، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي ، الطبعة الأولى ، سنة 1999 ، ص 90 .

[10] الطالب أخيار بن الشيخ ماميناء **الشيخ ماء العينين علماء و أمراء في مواجهة الاستعمار الأوربي**، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي ، الطبعة الأولى ، سنة 2005 ، ص 376 .

[11] ولد يوم 9 شتنبر 1877 م ، في إقليم الساقية الحمراء جنوب المغرب ، واشتهر بعلمه الغزير وثقافته الواسعة ، وتربى على يد والده الشيخ ماء العينين، فأخذ منه علوم الشريعة الإسلامية وعلوم اللغة العربية ، صحب والده في أسفاره وفي وفاداته على الملوك العلويين ، فعرف الناس وعرفوه وذاع صيته ، وبعد وفاة والده في 25 أكتوبر/تشرين الأول 1910 في تزنيت ، اتفقت أسرة أهل الشيخ ماء العينين على تعيينه خليفة لوالده ، وظل قائدا للجهاد إلى غاية وفاته يوم الثلاثاء 18 رمضان 1336 هـ / 27 يونيو 1918 م ، أنظر بحث المشروع المؤطر للطالبة بويه ليلوه ، **الحركة الجهادية ما بعد الشيخ ماء العينين في الجنوب المغربي ، 1910 إلى 1934 الشيخ أحمد الهيبة ومربيه ربه نموذجا** ، كلية الآداب والعلوم الانسانية أكادير ، جامعة ابن زهر ، موسم 2016-2017 ، ص 5-6 .

[12] الحسن الباز ، **مقاومة الشيخ أحمد الهيبة للاستعمار الفرنسي** ، أعمال ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار (1904-1955)، الجذور والتجليات، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير ، مطبعة كنابرانت –الرباط ، الطبعة الثانية، 2008 ، ص 404 .

[13] محمد المختار السوسي ، **المعسول** ، م ،س ، ص 108 .

[14] شفيق أرفاك ، ***قيادة تمارت بين إلتزام المحيط القبلي والسلطة المخزنية (1706 – 1934)*** ، دكتوراه الدولة في التاريخ غير منشورة ، كلية الآداب والعلوم الانسانية أكادير ، جماعة ابن زهر ، موسم 2006-2007 ، ص 222 وما بعدها .

[15] الحسن الباز ، ***مقاومة الشيخ احمد الهيبة للاستعمار الفرنسي*** ، م ، س، ص 405 .

[16] انظر محمد الحاتمي ، سيدي الحاج الحبيب التنالتي ، فكره وجهاده ، منشورات فريق البحث في التراث السوسي –كلية الآداب والعلوم الإنسانية – أكادير ، الطبعة الأولى ، سنة 2009 ، ص 12 وما بعدها .

[17] أحمد بومزكو، مادة كردوس ، **معلمة المغرب** ، ج 19 ، م ، س، ص 6787 .

[18] أملن تطلق في عهد الحماية وما قبلها على المنطقة ككل (دائرة تافراوت حاليا) ، لذلك نجد المختار السوسي في حديثه عن رجالات تافراوت في مؤلفاته العديدة دائما ما يصفهم بفلان بن فلان التملي .

[19] الحسن بن الحسين التوفيق التجاجتي ، **تافراوت ومدرستها العتيقة في ذاكرة التاريخ** ، منشورات مطبعة سوماكرام- الدار البيضاء ،الطبعة الثانية ،سنة 2019 ، ص 138.

[20] الحسن التوفيق التجاجتي ، **تافراوت ومدرستها العتيقية في ذاكرة التاريخ** ، م ، س ، ص 139.

[21] تونل هي قرية بأملن وإليها ينسب العالم ، وهو محمد بن محمد فتحا نآيت الحسن ، من فخد بني الحاج بأومسنات (أملن) ، إذ ينتسبون للجعفريين الذين أتوا من تامدولت ، راجع محمد المختار السوسي في كتابه : **المعسول**، ج 11 ، م ، س ، ص 293 وما بعدها ، كذلك محمد أبو إدريس ، أجوبة الفقيه ابي سليمان داوود بن محمد التملي التونلي لتلميذه الفقيه أبي علي حسين بن داوود الرسموكي ، دراسة وتحقيق ، بحث لنيل شهادة الإجازة ، تحت إشراف الحسن العبادي ، جامعة القرويين ، كلية الشريعة –أكادير ، موسم 1994-1995 ، ص 12 .

[22] أنظرها كاملة لدى محمد المختار السوسي في كتابه : **المعسول** ، ج 4 ، م ،س ، ص 116 .

[23] ترجم له محمد المختار السوسي في كتابه **المعسول** ، الجزء 4 ، م ، س ، ص 299.

[24] الحسن التوفيق التجاجتي ، **تافراوت ومدرستها العتيقة في ذاكرة التاريخ** ، م، س ، ص 144.

[25] ولد في 14 ربيع الأول 1298 هـ / 13 فبراير 1881م . بالتيرس (وادي الذهب) ، هو علامة وفقيه ومجاهد ، له عدة مؤلفات في التصوف والفقه والتاريخ والرحلات والشعر...شارك في الحملات الجهادية ضد الاحتلال الفرنسي جنبا إلى جنب مع والده الشيخ ماء العينين وأخيه أحمد الهيبة ، وقاد تعبئة القبائل السوسية التي أجمعت على تعيينه رئيسًا للمجاهدين ، غادر قلعته كردوس باتجاه طرفاية ليواصل جهاده مع زعماء الحركة الوطنية واستقر بها لغاية وفاته في 19 ربيع الثاني 1361 هـ / 4 مايو 1942 م ، أنظر : محمد الظريف في **معلمة المغرب** ، م ، س ، ص 7071 ، و بحث المشروع المؤطر للطالبة بويه ليلوه ، **الحركة الجهادية ما بعد الشيخ ماء العينين في الجنوب المغربي ، 1910 إلى 1934 ،الشيخ أحمد الهيبة ومربيه ربه نموذجا** ، م ، س، ص 20- 21 .

[26] ماء العينين النعمة علي و أحمد بومزكو ، **جهاد الشيخ مربيه ربه والقبائل السوسية من خلال وثائق محلية** ،ندوة سوس والصحراء المغربية تواصل ثقافي وحضاري ، م،س ، ص 54-55.

[27] أحمد بومزكو وماء العينين النعمة علي ،**من أعلام الثقافة بالصحراء المغربية ، الشيخ مربيه ربه العالم المجاهد** ، مجلة المناهل، منشورات وزارة الشؤون الثقافية المغربية ، عدد 49 ، سنة 1977 ، ص 299 .

[28] محمد المختار السوسي ، **المعسول** ، ج 4 ، م ، س ، ص 250.

[29] الحسن التوفيق التجاجتي ، **تافراوت ومدرستها العتيقة في ذاكرة التاريخ** ، م، س، ص 140.

[30] المهدي بن محمد السعيدي ، **المدارس العتيقة وإشعاعها العلمي والأدبي بالمغرب ، المدرسة الإلغية بسوس نموذجا** ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، مطبعة فضالة – المحمدية ، الطبعة الأولى ، سنة 1427هـ/2006 م ، ص 115-116 .

[31] حمزة عبد الله قاسم ، شذرات من تاريخ قبيلة تافراوت ، أكرض أوضاض ، **مجلة التواصل الجمعوي** ، مجلة دورية تعنى بشؤون العمل الجمعوي بتافراوت ،سنة 2006 ، ص 28 .

[32] الحسن التوفيق التجاجتي ، **مدرسة تافراوت العتيقة في ذاكرة التاريخ** ، م،س ، ص 145.

[33] Robert Montagne , **Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc**, collection archives ,Edition Afrique Orient . F. Alcan, 1930 , p 36.

[34] هو عبد الله بن سعيد محمد بن الحسن بن حماد زاكور، ولد سنة 1885 بمنطقة أيت عبد الله، وتلقى تعليمه الاولي بمسجد البلدة على غرار اقرانه في تلك الفترة، تزامنت مشيخته لبلدته بالتحرشات الفرنسية لمنطقة الاطلس الصغير وصولا الى سنة 1934م ،حيث اضطر المجاهد عبد الله زاكور الى الاستسلام حقنا لدماء اهالي المنطقة ، التي مارست في حقهم القوات الفرنسية التقتيل والتنكيل بهم، وقد تم وضع المجاهد عبد الله زاكور رهن الاقامة الجبرية في عدة مناطق درعة ، قبل ان يستقر بمعتقله بتارودانت، وتوفي رحمه الله سنة 1972 ودفن بمقبرة البلدة بزغنغين ، أنظر : عمر أمرير ، **جذور الديمقراطية في المغرب** ،م،س ، ص 126.

[35] عبد الرحمان الصنهاجي، **مذكرات في تاريخ حركة المقاومة وجيش التحرير المغربي** ، منشورات مطبعة فضالة – المحمدية – الطبعة الأولى،سنة 1986-1987 ، ص 74.

[36] أنظر ملحق الصور الخاص بقرية عبد الله زاكور " زغنغين" بمنطقة آيت عبد الله .

[37] محمد المستاوي و أحمد عصيد ، **المجاهد المنسي عبد الله زاكور** ، مجلة تاوسنا ، العدد الأول ، يناير 1994 ، ص 64.

[38] عبد الله مسكت ، **مقاومة قبائل آيت عبد الله في أعقاب فرض معاهدة الحماية سنة 1912 والاعتداءات الاستعمارية التوسعية** مجلة الذاكرة الوطنية ، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير ، مطبعة كانابرانت الرباط ، العدد 11 ، سنة 2008 م ، ص، 262.

[39] عبد الله مسكت ، م، س ، ص 262.

[40] محمد المختار السوسي ، **المعسول** ، ج 20 ،م ،س ، ص 176 .

[41] محمد المختار السوسي ، **المعسول** ، ج 20، م ،س، ص 154.

[42] جهادي الحسين ، **جانب من تاريخ آيت باعمران ، معركة إكالفن 1917** ، ندوة مدينة تيزنيت وباديتها في الذاكرة التاريخية والمجال والثقافة ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية ، أكادير ، الطبعة الأولى 1996 ، ص 101-102 ، أنظر كذلك جهادي الحسين ، **من ذاكرة سوس وبصمات الحاضر ، نموذج آيت باعمران** ، منشورات مطبعة النجاح الجديدة بالبيضاء ، الطبعة الأولى ، سنة 2016 ، ص 230.

[43] Maurel (G) , l**es opérations militaire du Maroc**, for the 1931 International Colonial Exposition of Paris, Imprimerie nationale, 1931, P. 86. Dugard (H), **La conquête du Maroc** : **La colonne du Sous** (Janvier-juin 1917), Paris,Tome 1, 1918, p 91.

[44] عبد الله مسكت ، **مقاومة قبائل آيت عبد الله في أعقاب فرض معاهدة الحماية سنة 1912 والاعتداءات الاستعمارية التوسعية** ، م ، س ، ص 261.

[45] عبد الله الصنهاجي، **مذكرات في تاريخ حركة المقاومة وجيش التحرير المغربي** ، م ، س ، ص 75.

[46] محمد بن الطيب أحوزي الجشتيمي التملي ، **كشف الغطاء عن أملن وما فيه من العظماء** ، منشرات مطبعة سليكي أخوين بطنجة ، الطبعة الأولى ، سنة 2013 ، ص 93 .

[47] محمد المستاوي و أحمد عصيد ، **المجاهد المنسي عبد الله زاكور** ، م، س، ص 65 .